الجمالية – ماهيتها وبنيتها المعرفية

يمكن أن نصف الجمالية بأنها تمثل التعبير الفكري عن بنية الجمال أو مظهره ، سواء كان الجمال طبيعي المنشأ أو تجريبي تطبيقي . ولو بحثنا عن الجمال وبنية النظام المعرفي الفردي والجمعي ، لوجدنا تماثلاً بين هذا النظام ووعي الجمال نفسه ، وهكذا نجد أن (هيغل) قد أكد على هذا المنطق قائلاً ((الجمال والحقيقة متماثلان... ولابد للجميل أن يكون حقا ً). ومرجعيات ذلك ينطلق من فكرة تلازم الخير والحق والجمال بعدهم صورة المطلق في الوعي. وهذا بحد ذاته مرجع أفلاطوني، ((أن الذي يجعل للحياة قيمة في عيني هو تأمل الجمال الأبدي)) ،وهي صورة مطلقة يضعها (أفلاطون) بمراتب الوجود الإلهي المثالي وهي رمز للخير والسعادة .وتتشكل فيها صورة الجمال بمظاهر الحسن من باب المعرفة والمنطق و(اللغة) .

أن الموضوع الجمالي موضوع فكري يرتبط بالوعي ونظم الإدراك المعرفي في الفكر الإنساني ليؤسس علاقة ترتبط بالموضوع الفلسفي الجمالي. ومنه نجد أن وعي الجميل ما هو إلا فكرة ورؤية معرفية المنشأ، لأنها تدخل في ملكة الذوق وتؤسس بنياتها الداخلية في الفهم والإدراك وهذا لا يتم وفق الطرق التقليدية بما يثير فينا من أحاسيس فقط ، بل يمكن أن تكشف من خصوصية العلاقة والأجزاء التي تؤثر فينا. والناقد الجمالي ((يعد جميع المواد التي يتعامل معها ... كقوى أو طاقات تبعث مشاعر ملذة، كل واحدة من نوع يزيد أو ينقص خصوصية أو تفرداً... [ووظيفته] أن يميز ويحلل ويفصل عن لواحقها تلك الميزة في الصورة أو المنظر الطبيعي)).

أن الوظيفة التي أشير اليها ترتبط بعلاقات وثيقة الترابط بين الفرد ومجتمعه. وبالتالي فان تحديد معنى الجمال والجميل ، هو لكشف الماهية الجمالية وعلاقاتها الشاملة الواسعة. والوصول إلى كشف العلاقة سيؤدي بالنتيجة حتماً إلى كشف

العلاقات الباطنية في جزيئاتها الصغيرة ونظامها الكلي الذي يتعلق بموضوع المنفعة وأثرها في النظام الإدراكي الذي يحدد الذوق الجمالي (الجمعي) في الانتماء إلى تعيين ماهية الجميل من عدمه.وبالتالي يمكننا القول ((انه ذلك الشعور الذي يختلج صدر الفنان ، واحتدم بحرارة الانفعال عندما يشاهد صور الجمال ، سواء مما تزخر به الطبيعة أو في الإنتاج الفني بمختلف ومتباين الصور والأشكال في العالم المرئي وعالم الفن)).ونجد أن فعالية الجمال تحقق نحو الوعي في الذات وفي الجماعات ولقصر الشمولية في النظرة التي يتكامل بها الآخر المؤشر، وعليه فان نظام الباعث الجمالي المتحقق في الذات المدركة يرتبط بمؤثرات (سيسولوجية) و(ميثولوجية) .

وان الجمالية من حيث هي رؤية ترتبط بنظم المعرفة ارتباطاً مباشراً فلا بد لها أن تتأثر بفلسفات الفكر الإنساني ، وتختلف نظرة كل فلسفة لها حسب منهجها في تفسير ماهيتها في الوجود الإنساني . وقد نجد خلافاً في وجهات النظر أو قد نجد تشابهاً ومواضعه في فلسفات أخرى، والسبيل إلى ذلك هو اتباع التحليل الفلسفي لكل تجاه أو فكر ، وهكذا نجد أن الجمالية عند المثاليين لا تتعدى كونها فكرة تتصف بالتجريد العقلي وليس لها تعيين، بل هي مطلقة خارج حدود البنية بوصفها جزءًا من الجوهر الإلهي ، هذا من جانب ومن جانب أخر تكون ذات نزعة إنسانية من خلال تلامسها في حياة الإنسان المعنوية والمادية، وهذا التلامس والاندماج هو جدل مثالي كما جاء في تفسير (أفلاطون) في جدله الصاعد والهابط ، هي فكرة المطلق والخير والحدس. لأنها ذات طبيعة روحية ، وسبب كل اندفاع ودهشة وحركة في الحياة كما جاء في وصفه من ((أن هذا الجمال الإلهي هو الخير المطلق وهو رمز الحياة والحركة)).

وهكذا نجد أن طبيعة هذه الفكرة ديناميكية الفاعلية والمعرفة إذا ما نظرنا إليها كفكرة في الفلسفة المعاصرة. ولما كانت فكرة الجمال بطبيعتها النسقية ناتجة من أحكام

الإنسان تجاه الشيء المؤشر ، وبذلك نجد اختلافاً في الأحكام الجمالية عند الأشخاص تبعاً للذوق. وعليه فان ذلك يجعل من طبيعة هذه الفكرة تحت ذريعة الاختلاف والحركة تبعاً للحكم. وهذا ما أكده (كانت) عندما وصف (أن ارتباطاتنا مأخوذة من الإدراك في التركيب بان الأشياء في الحكم الجمالي هو ليس أرضاءاً في الماديات الظاهرة انه لا يرتبط من شخص لاخر، ولربما إرضاء لشخص واحد قد تكون غير مرضية لآخر).

وبمعنى اختلاف الذوق الجمالي يأتي تبعاً للحكم النقدي له كما جاء في تفسير (كانت) له . ليس بالضرورة أن يكون مشابهاً من شخص لاخر لان الحكم الجمالي هو حكم جدلي أصلاً متغير ، وقد لا يكون على نفس الرتابة بين عصر وآخر ، وعليه فان ذلك يفسر لنا اختلاف مدارس الفن قديماً وحديثاً ، وعلى سبيل المثال نجد أن الجمالية من حيث هي فكرة في الفلسفة المثالية تنسجم مع الغايات الفكرية والنفسية للإنسان، وعليه فأنها تكون سبيل تطوير الوعي والإدراك الجمالي لديه، وبه يدرك الإنسان الأشياء وينسب لها صفة الجمال والمثل العليا في الاختلاف في الفن والفلسفة ، لأن ((الفن يعبر عن الفكرة الفلسفية)). ففي الفن يدرك الشيء الجميل حسب النظرة المثالية من خلال تجريدات الأشكال الطبيعية ، لان ((الجمال إنما يقوم في أشكال الطبيعة على أسس تجريدية. وان هذه الصفات التجريدية المعينة هي الباعثة للارتياح والمنفعة (الانفعال الجمالي) حيث تتضمن الإيقاع والانسجام والتناسق والتوازن والتنوع)). وهنا يمكن القول أنها مادية (حسية) أشكال ثابتة مرئية. أما حقيقتها الفكرية فهي تجريدات مثالية إلا أن أدراك الإنسان لها يتم على وفق مبادئ مشتركة أو عناصر أساسية تحقق صورة الجمال في الأشكال من خلال الإيقاع والانسجام والتناسق والتوازن والتنوع.

أما إذا نظرنا أليها نظرة مادية فيمكن إرجاعها إلى الأصل (الأيديولوجي)* التاريخي عندما ربط أصحاب النزعة المادية فكرة الجمال بالواقع المادي في حياة الإنسان وتبعاً لهذا الواقع فان المعرفة الجمالية تنعكس من سياقات المادة وأشكال الطبيعة نسبة ً لمكوناتها المادية. أما شكل التغيير في الأذواق والبنى الجمالية ، فإنما تابع للتغيرات التاريخية في حياة البشرية. وهذه مقرونة بتطورات المرحلة التاريخية إلى أخرى، وكذلك التغيرات الاقتصادية والمادية في حياة المجتمع، كما هو الحال عند ظهور نزعات جمالية جديدة في الفن كنتاج لتغيرات المرحلة التاريخية لأسباب ثورية أو ديالكتيكية. أنها من صميم الواقع الاجتماعي للإنسان كما هو الحال عند ولادة الواقعية الاشتراكية في روسيا ومبادئ الفن والجمال الجديدة التي نقلتها والتي تحمل مبادئ تختلف عن البرجوازية والكلاسيكية السابقة لها.

وإذا نظرنا إلى الذوق والشعور الجمالي من هذا الجانب فقد نجد أن أساليب تغيره وتطوره من مرحلة لأخرى تبعا إلى تغيرات المرحلة التاريخية نفسها. فلا ((يفصل ماركس وانجلز الشعور الجمالي عن المجال المعرفي للإنسان بل ينظر أليه كواحد من أساليب التغير عن العالم ومعرفته وبالتالي التأثير فيه)) ولقد وجد كل منهما من خلال هذه الفكرة توائم العلاقة لحد ما بين الشعور الجمالي كفعل انساني مع الواقع الاجتماعي المتغير. وهذه العلاقة تفصح عن طبيعة المعرفة الناتجة من الإدراك الجمالي والشعوري . وهي نابعة من الواقع الحياتي للإنسان . وان الطبيعة الديالكتيكية هي سبب الخلق لما هو جديد من مفاهيم ومدركات حسية.ولا تختلف الفكرة هنا عند البراغماتيين الا من نواحي معينة أهمها تأكيدهم في وصف الجمال كخبرة وتجربة ، حيث تؤكد أن اكتساب المعرفة لا يتم ألا عن طريق التجربة ، وتختلف هذه التجربة باختلاف ميادينها ، ولكن الجانب المعرفي فيها هو الخبرة الناتجة منها . ولو نظرنا هنا إلى الجمالية كفكرة معرفية تتجه نحو المنفعة بان يكون

كل شيء جميلاً ونافعاً مهما تكن الفكرة حتى وان كانت مجردة من الخواص المادية ، لأنها تكون نافعة بقدر ما توفره من رضا ومتعة نفسية . وان لا يتجرد من المنفعة ، والمنفعة هنا هي بقدر ما توفره من متعة نفسية كما جاء في قول (ارسطو) ((أن الجميل ، إنما هو الطيب الذي يكون ممتعاً بسبب انه طيب)).